

متدينون أكثر من اللازم، لهذا نجده قد تطرق بتفصيل لهذا الموضوع: الوضوء والصلاة والأعياد الدينية. وقد خصَّ الرحالة - سيرا على نهج من سبقوه من المستشرقين والرحالة الغربيين - شهر رمضان بفصل خاص بعنوان «رمضان وعيد الأضحى».

إن كتب الرحلة هي مزيج من السيرة الذاتية، والحبكة الروائية، والوصف السردي، ولهذا فقد اعتمد الرحالة الأرجنتيني أدريان باتروني في كتاباته بنية السرد المعتادة القائمة على الوصف، فمن خلال كتاباته نستشف هذا العنصر الأساسي في الرحلة، والذي استطاع من خلاله أن يرسم لنا صورة سياسية واجتماعية ودينية عن المغرب والمغاربة في فترة الحماية، وهذه الكتابات توفر للقارئ فضاء فكرياً هاماً يستشف من خلاله تاريخ وصورة المغرب والمغاربة في الكتابات الاستشراقية الناطقة بالإسبانية.

لم يعتمد الرحالة على قراءة الكتب والملاحظة والمشاهدة فقط، بل كان يقوم بلقاءات ميدانية وحوارات مع الناس للتقرب منهم ومن عاداتهم وطبائعهم وأنماط عيشهم، بالإضافة إلى أنه لم يكن لديه مشكل مع اللغة بفعل الحماية الإسبانية والقرب الجغرافي من إسبانيا ووجود الإسبان في الشمال المغربي ساعدته على الاختلاط بالناس وتبادل أطراف الحديث معهم، فهو لم يكن بحاجة ملحة إلى مترجم بخلاف الرحالة الهولنديين أو الألمان على سبيل المثال.

وهنا تكمن أهمية الكتاب في توثيق الروابط الثقافية والتاريخية بين البلدين، وكذا في إعادة إصدار المؤلف الذي يؤرخ لجولة واسعة في مناطق الحماية الإسبانية والفرنسية، وهو يدخل في إطار مجموعة الطبعة المشتركة بين جامعة روساريو ومعهد الدراسات البرتغالية التابع لجامعة محمد الخامس في إطار اتفاقية سمحت في السنوات الأخيرة ببناء جسور الثقافة بين الأرجنتين والمغرب خاصة وبين المغرب والعالم الأخرى، فقد امتدت جذور العلاقات المغربية-الإسبانية إلى حقب غابرة في التاريخ بحكم التقارب الجغرافي والحضاري بين البلدين، وعلى امتداد الزمن عرف البلدان أشكالاً عديدة من التفاعل الثقافى. وعسى أن يتم ترجمة هذا الكتاب إلى اللغة العربية وأن يهتم به أصحاب القرار الثقافى والتربوي في المغرب لكي يتعرف القارئ باللغة العربية على الصور الاستشراقية الأمريكي-لاتينية التي شيدها الرحالة الأرجنتيني عن المغرب الإسلامي؛ وبالتالي ربما عن الشرق الإسلامي في الكثير من الجوانب المشتركة بين الشرق والمغرب الإسلاميين.

اسم الكتاب: «من الأرجنتين إلى المغرب، جولة واسعة في مناطق الحماية الإسبانية والفرنسية».

اسم الكاتب: أدريان باتروني (Adrián Patroni) دار النشر: معهد الدراسات الإسبانية البرتغالية التابع لجامعة محمد الخامس بالرباط وجامعة محمد الخامس بالرباط ومنشورات جامعة روساريو الوطنية. سنة النشر ومكانه: ٢٠١٦، روساريو (Rosario) الأرجنتين.

لغة الكتاب: اللغة الإسبانية

* باحثة في الأدب المقارن / الرباط، المغرب



إليها عدد كبير من المسؤولين الذين استقروا فيها مع عائلاتهم، الشئ الذي انعكس على المجال الاقتصادي إيجابياً، وكان الأجنب ومنهم الإسبان والفرنسيين والإنجليز وغيرهم، قد هيمنوا على الأنشطة الاقتصادية بمنطقة طنجة من خلال الشركات التجارية والبنكية وأنشطة التهريب، وقد استفادوا من امتيازات متعددة منها ضعف أجور العمال وانخفاض أسعار العقار وندرة الرسوم الجمركية، ورغم ذلك فإن العمال المغاربة شكلوا أغلبية السكان، وزاولوا أنشطة متواضعة كخدم في البيوت وتجار حرفيين صغار.

وبخصوص المستوى الثاني من التحليل والذي يخص المجال الثقافى والأنثروبولوجي فقد حظي هذا المجال بحصة الأسد في هذا المؤلف، إذ أن معظم فصول هذا الكتاب خصصها الكاتب لوصف رحلاته وزياراته لمختلف المدن المغربية، وكما يبدو وبخلاف الرحالة الذين يقتصرون على زيارة المدن السلطانية والمركزية (طنجة، فاس، مكناس، الرباط، مراكش)، فقد وسَّع الرحالة أدريان باتروني رقعة رحلاته فشملت عدة مدن مغربية من الشمال إلى الجنوب، وكما ذكرنا سابقاً فقد قام الرحالة الأرجنتيني برحلته في عز الحماية الإسبانية والفرنسية، فهذا عامل أساسي ساعد الرحالة على توسيع جولته بالمغرب، إضافة إلى أنها فتحت أمامه مجالاً ثقافياً واسعاً وأمناً له، من ناحية المجال السياسي والأمنى، ومن ناحية الثقافة في هذه الرحلة فقد عزم الرحالة على زيارة عدة مدن لتوسيع أفق نظرتة عن البلد وللتعرف على التنوع الثقافى. وكان الكاتب قد أورد فصلاً بعنوان المرأة المغربية وعاداتها عند مختلف الطبقات الاجتماعية، وصفها بامرأة لا تختلط بالرجال ولا تمشي في الأسواق ولا تخرج إلا إذا غربت الشمس وهي ترتدي لباساً محتشماً لا يكشف عن وجهها، تلك هي المرأة المغربية في الثلاثينات.

وتناول الكاتب في الجانب العقائدي والديني موضوع الدين والتدين الشعبى بشكل مفصل في فصل بعنوان «المغاربة متدينون بشكل مفرط»، ومن خلال عنوان الفصل يظهر جلياً رأي الكاتب أو نظرتة تجاه المغاربة فيما يخص الجانب العقائدي، فهم بالنسبة إليه

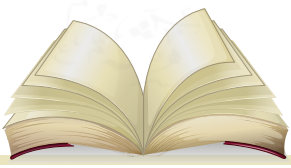
إدارة مركزية وإقليمية ومحلية، وكان المقيم الفرنسي ليوطي أول مقيم عام في المغرب يمثل الجمهورية الفرنسية بالمغرب، ويسير المصالح الإدارية والعسكرية ويسن القوانين ويصادق عليها بمساعدة كاتب عام يشرف على جميع الإدارات، إضافة إلى المديرين الذين يتولون رئاسة المديرات والوزارات المهمة كوزارة المالية والداخلية والتعليم والفلاحة. أما الإدارة المركزية فكان على رأسها السلطان وله دور شكلي حيث يوقع الظهائر، كما أن له سلطة دينية أكثر منها سياسية، يساعده الصدر الأعظم ووزارتا العدل والأوقاف. وبحلول سنة ١٩٢٥ تحولت الحماية إلى إدارة مباشرة تتخذ القرارات متجاوزة الإدارة المغربية، عكس ما كانت تصرح به سلطات الحماية في شخص مقدمها العام ليوطي أن الإدارة تمت بمؤسسات وحكومة وإدارة البلد وتحت السلطة العليا للسلطان وتحت الإشراف البسيط لفرنسا.

أما فيما يخص التنظيم الإداري بمنطقة الحماية الإسبانية التي تضم جغرافياً المنطقة الشمالية والمنطقة الجنوبية، فقد ذكر الكاتب أنها تميزت بالازدواجية كما هو الشأن بالنسبة للإدارات الفرنسية بمنطقة الحماية الفرنسية، بين الإدارة الاستعمارية والدار المخزنية المغربية كإدارة شكلية مركزياً ومحلياً. فكان على رأس الإدارة المركزية الإسبانية مندوب سام يمثل الدولة الإسبانية بالمغرب يسير منطقة الاحتلال ويستعين بمجموعة من الأجهزة الإدارية في شكل نيابات، وقد عينت إسبانيا محلياً قناصل في المدن وعينت في البوادي ضباطاً عسكريين. ويقتصر دور السلطان الذي يمثل الإدارة المغربية المركزية على صلاحيات شكلية كإصدار الظهائر، كما يتولى إدارة العدل والأوقاف.

وقد أشار الكاتب في فصل أورده تحت اسم «طنجة المنطقة الدولية»، إلى وضعية طنجة آنذاك، فذكر بأن طنجة كانت لها وضعية خاصة، حيث صارت عند أواخر القرن الثامن عشر الميلادي عاصمة المغرب الدبلوماسية، وبالتالي معقلاً للسفراء ومقرراً لنائب السلطان وذلك نظراً لقربها من أوروبا وعلى مضيق تمر به معظم سفن الدول الأوروبية، بعدها تم فرض النظام الدولي على طنجة وحددت أجهزته بموجب اتفاقية باريس ١٨ دجنبر ١٩٢٣ بين فرنسا وإسبانيا وبريطانيا وألمانيا.

ويرى المؤلف بأن أبعاد تدويل مدينة طنجة تكمن في الأساس في فقدان المغرب لسيادته على مدينة طنجة، فقد أصبح الأجنب هم سادة طنجة والقائمين عليها، أما بالنسبة للدولة المغربية فقد ظل تواجد صوريا بعد تعيين السلطان مندوباً له بطنجة، فالمندوب السلطاني يمثل السلطان المغربي، ويحرص على احترام المغاربة للنظام الدولي ويترأس المجالس التشريعية لكن ليس له حق التصويت. ويشير الكاتب إلى أن المنطقة الدولية تضم هيئة تشريعية صورية أكثر منها حقيقية، ولا يتم انتخاب أعضائها عن طريق اقتراع عام ولكن يتم تعيينهم من طرف ممثلين دبلوماسيين وهي تتكون من ست دبلوماسيين ٤ إسبان و٤ فرنسيين و٣ من إنكلترا و٣ من إيطاليا و٣ أستراليين وبلجيكي واحد وهولندي وبرتغالي.

وخلال تواجد الكاتب في طنجة التقى بشباب من المدينة وتبادل معه أطراف الحديث، فأكد له هذا الشاب أن الميزة الوحيدة التي امتازت بها عملية تدويل منطقة طنجة هي أن الدول التي تدخلت بشكل مباشر في طنجة انضم



من الأرجنتين إلى المغرب: جولة واسعة في مناطق الحماية الإسبانية والفرنسية لـ: أدريان باتروني

كلثوم بوطالب *

يطل علينا معهد الدراسات الإسبانية البرتغالية التابع لجامعة محمد الخامس بالرباط وجامعة محمد الخامس بالرباط ومنشورات جامعة روساريو الوطنية، بكتاب رحلي مهم جداً، هو «من الأرجنتين إلى المغرب، جولة واسعة في مناطق الحماية الإسبانية والفرنسية» للرحالة أدريان باتروني (Adrián Patroni). ويقدم المؤلف في كتابه هذا نظرة فريدة واستثنائية عن المغرب والمغاربة، بصفته رحالة قادته رحلته من الأرجنتين إلى المغرب مروراً بمحطات عدة. تكمن أهمية هذه الرحلة في أن رؤية العالم فيه صادرة عن صحفي وباحث أرجنتيني، ينتمي إلى نوعية خاصة من الاستشراق الذي تنتفي عنه صفة الاستعمارية كونه استشراقاً لم يكن لدى رواده أطماع إمبريالية في المغرب، وفي أن بلدانه الأصلية نفسها كانت ضحية للهجمة الاستعمارية في القرن التاسع عشر وبداية القرن العشرين، إضافة إلى أن المؤلف هو رحالة وسائح عالمي. وكان هدف المؤلف أساساً من السفر إلى المغرب هو وضع مقارنات بين مناطق الحماية الفرنسية والإسبانية في المغرب، مناشداً الرحالة والسياح من أبناء وطنه التطلع لعيش هذه التجربة الفريدة.

الرحلة، من بينها مجموعة من القضايا التي لا تخلو من الوصف كوصف السوق والزي الرجالي والنسائي، والعادات والتقاليد والدين إضافة إلى الخصائص الظاهرية للتسمية القديحة للمغربي -مورو-، وغيرها من الثيمات المؤسسة لهذا النوع من الكتابة. ما هي المجالات المهمة التي يمكن أن يضعها مستشرق ورحالة أرجنتيني تحت مجهر الملاحظة؟ وهل هذه المجالات تعطي صور دقيقة عن الشرق والغرب الإسلامي؟

ذلك ما يحاول الكاتب معالجته في نصح. فالكتاب يتألف من مقدمة مطوّلة ومركزة تحاول فيها محررة المقدمة الأستاذة سيلفيا مونتينغرو (Sivia Montenegro) أن تقدم مادة كتاب الرحالة الأرجنتيني أدريان باتروني وبعض الشيفرات التي قد توجه القارئ لقراءته. إضافة إلى مجموعة من العناوين التي تبين مسار رحلته في المغرب والمناطق التي زارها. ومن وجهة نظري يمكن أن أوزع فصول هذا الكتاب على ثلاثة مستويات، الشيء الذي توضحه عناوين فصول الكتاب: ١- مستوى استعماري، ٢- ومستوى ثقافي أنثروبولوجي. ٣- ومستوى عقائدي ديني.

أما النسبة للمستوى الاستعماري فقد خصص الكاتب الفصل الأول بعنوان «الحماية الفرنسية والإسبانية» والفصل الثاني بعنوان «طنجة المنطقة الدولية». ويقدم الكاتب في فصل الحماية الفرنسية، التي ضمت المناطق الوسطى بالمغرب ابتداء من سنة ١٩١٢ وصفاً لنظام الإدارة المغربية وأدوار الوزراء وخليفة السلطان ووظائفهم ومدى صلاحيتها، ويؤكد أن السلطان المغربي مولاي يوسف (اعتلى العرش سنة ١٩١٢) في ظل الحماية ظل ذا سيادة اسمية فقط، وقد تمتع بنفس الحقوق التي يتمتع بها في رقعة الحماية الإسبانية، في حين كان يكلف الوزراء وكتاب الدولة في مجمل الأحيان بمهام خاصة. وقد أحدثت فرنسا إدارة فرنسية لترسيخ سلطتها مع الاحتفاظ بالأجهزة المخزنية المغربية، فتوزعت بين

الكاتب بأنها أكثر المدن تشبعا بالحضارة الإسلامية، ولا زالت المدينة تحتفظ بمظاهر الحياة الإسلامية. ومباشرة بعد رحلته إلى إسبانيا حدّد الكاتب وجهته المقبلة وهي المغرب، بعد أن تشبّع بعدة حوافز أيقظت بداخله همة السفر إلى المغرب دون تردد. فقد كانت تحدو المؤلف نزعة الاستكشاف لمعرفة أحوال الناس في المغرب. ومن بين الحوافز الأخرى التي شجعت على السفر إلى المغرب مشاهدته في إحدى قاعات العرض السينمائية لفلم «سقور الصحراء» من إنتاج الحكومة الفرنسية تسلط فيه هذه الأخيرة الضوء على التقدم الذي أحرزته في منطقة الحماية الفرنسية بالمغرب. وكان هذا الفلم كافياً ليزيد من عزمه على السفر إلى المغرب. وعموماً فقد تعددت الأسباب التي جعلت المغرب وجهة سفر مفضلة عند بعض الرحالة، فعدم التوافق بين القرب الجغرافي والبعد الثقافي بين المغرب وأوروبا يخفي وراءه مؤامرة بدرجات متفاوتة من التعصب المعربي بين الرواة والكتاب. وفي الحقيقة، ارتفع عدد الرحالة الذين زاروا المغرب في منتصف القرن التاسع عشر وبداية القرن العشرين، وأغلبهم رحالة فرنسيون وبريطانيون وألمان، ورحالة إسبان، وكانت الكتابات اللاحقة في العقد الأول من القرن الأول تميز الجغرافيا الجديدة بانتماؤها إلى الحماية الفرنسية أو الإسبانية في المغرب.

«من الأرجنتين إلى المغرب، جولة واسعة في مناطق الحماية الإسبانية والفرنسية» كتاب يعجّ بالمفارقات الشرقية، دونتها أنامل رحالة متمرس. ولهذا السبب يبدو أن الكاتب لم يرغب في حصر كتاباته في زاوية الكتابة الرحلية، فقد كان هدفه الغوص في أعماق الحماية الفرنسية والإسبانية في المغرب، وكذا بعض خصوصيات منطقة طنجة الدولية وبلورة مقارنة بين نظامي الحماية في المغرب آنذاك.

إن متعة الوصف تتجلى في قدرتها على خلق تصورات استشراقية بسيطة لكنها دقيقة وجدلية، لهذا تباينت الثيمات المشتركة والضمنية المهيكلة لهذا النوع من

كتاب «من الأرجنتين إلى المغرب، جولة واسعة في مناطق الحماية الإسبانية والفرنسية» يجمع بين خطاب البحث النظري وخطاب التقارير الرحلية الإثنوغرافية وخطاب الممارسة الميدانية المختلفة في المغرب، وهو بهذا لا يكشف فقط عن ذلك الاتجاه المروري للرحلة كما يوضحه العنوان - من الأرجنتين إلى المغرب- بقدر ما يؤلف صورة فريدة عن مغرب فترة الثلاثينيات من القرن العشرين.

والرحالة أدريان باتروني مؤلف هذا الكتاب، هو رسام وشاعر غنائي، شارك في الأوساط الاشتراكية العمالية في العقود الأخيرة من القرن التاسع عشر، ويعد أحد مؤسسي الحزب الاشتراكي العمالي في الأرجنتين آنذاك، وكانت كتاباته بصفته محرراً وكاتب عمود تعتبر من بين أنشطته المتميزة واللامعة. في سنة ١٩٠٥، تخلى أدريان باتروني عن العمل الحزبي وعمل بعدها في الوزارة الوطنية للفلاحة، وكان يتابع الكتابة بصفته صحفياً عسكرياً، وبفضل إبعاده عن المجال الحزبي انطلقت كتاباته عن الرحلة ضمن مشروع ثقافي في مجال علم الشعوب؛ ويعتبر هذا النص لبنة أخرى في هذا المشروع الذي تبنته المؤسسات العلمية، حول التراث السياسي والثقافي للشعوب، ضمن أربع مؤلفات أخرى في هذا المجال وهي: «سنة أشهر في أوروبا» (١٩٠٥)، و«روائع شمال ووسط الأرجنتين» (١٩٢٤)، و«روائع جنوب الأرجنتين» (١٩٢٨)، و«روائع بحيرات الأرجنتين» (١٩٣٨)، وكتابه «من الأرجنتين إلى المغرب، جولة واسعة في مناطق الحماية الإسبانية والفرنسية» (٢٠١٦).

حظيت الروائع التي تزخر بها المدن الإسبانية مثل غرناطة وإشبيلية وقرطبة وغيرها بإعجاب الكاتب أثناء زيارته لإسبانيا سنة ١٩٠٢، وشكلت بالنسبة له دافعا للقيام برحلة إلى إمبراطورية السلاطين «الأندلس» ومدينة غرناطة بالخصوص، وبعدها قام بزيارة مدينة طرابلس وتونس والتي مازالت محافظة على مظاهر حياة المسلمين، وخاصة في مدينة تونس التي وصفها

